مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (31) العدد (2)2009
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (31) No. (2) 2009

النقد الأدبي والهوية
عمليات تأصيل النقد العربي الحديث

الدكتور عبد الله أبو هيف*

(تاريخ الإيداع 30 / 11 / 2008. قبل للنشر في 30 / 6 / 2009)

□ الملخّص □

واجه النقد العربي الحديث هيمنة المؤثرات الأجنبية إلى حدّ الاستلاب الكامل ، مما دفع الكثير من النقاد العرب إلى ابتعاث المكونات التقليدية الموروثة وتشكلاتها النقدية الحديثة ، وتجلت عمليات التصارع النقدي بين الهوية والهيمنة في إثراء التأصيل والتحديث النقدي ، لا مجرد استحضار الموروثات التقليدية ، أو مجرد نقل النظريات النقدية المترجمة وتطبيقاته. ثم آلت هذه التصارعات غالباً إلى ضبط مفهوم الأصالة والمعاصرة ومكانته في تحديد الهوية القومية ، وفي مقدمتها السمات النظرية النقدية تفاعلاً بين التراث النقدي وتثميره في المناهج النقدية الحديثة ، منظورات ومعايير .

مهّد البحث عمليات تأصيل النقد العربي الحديث ، ولا سيما إبراز أهم النقاد الفاعلين في المنهجية والمعرفية والعلمية نشداناً للتعالق بين الموروثات والأشكال الحداثية وما وراءها .

حلل البحث نماذج تمثيلية لشغل النقاد البارزيين دلالة على طبيعة التأصيل وشؤونه ومراميه ، عند النقاد محي الدين صبحي (سورية) ووجيه فانوس (لبنان) ، وعبد الفتاح بومدين (السعودية) ، وعبد الملك مرتاض (الجزائر).

استخلص البحث التوازي بين أصالة النقد العربي الحديث والاتجاهات الحداثية المتعددة ومنظوراته ومعاييره.

الكلمات المفتاحية : التأصيل النقدي ، الهوية ، تطبيقات نقدية عند نقاد.

*أستاذ مساعد – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (31) العدد (2)2009
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (31) No. (2) 2009

Literary Criticism and Identity: The Originality Processes of Modern Arab Criticism

Dr. Abdallah Abu Heif*

(Received 30 / 11 / 2008. Accepted 30 / 6 / 2009)

□ ABSTRACT □

Modern Arab Criticism has been confronted the domination of foreign effects to the extent of complete absorption; this has motivated many Arab critics to revive inherited traditional components and their modern critical formations. The critical conflict process between identity and domination has manifested itself in enriching the originality and modernization of criticism, not just by recalling traditions or by mere transforming translated critical theories and their applications. Then, these conflicts have mostly led to controlling the concept of originality and contemporariness and its role in specifying national identity starting with theoretical critical properties in the form of interaction between critical heritage and enriching it in modern critical approaches to perspectives and norms. This research introduces the process of originality of Modern Arab Criticism highlighting especially the most important and effective critics methodologically, intellectually, and academically, seeking the interaction between traditions and modernist forms. This study also analyzes representative models of the works of important critics illustrating the nature and purposes of originality, such as Mohie al-Din Sobhi (Syria), Wajih Fanous (Lebanon), Abd al-Fallah Bo madian (Saudi Arabia), and Abd al-Malek Murtad" (Algeria). This research concludes with the parallelism between the originality of modern Arab criticism and the several modern trends of its perspectives and norms.

Keywords: ideological direction, constructional formation, critical applications.

* **Associate prof., Department of Arabic. Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria**

مقدمة:

تتنازع النقد الأدبي العربي الحديث مسألتان الأولى، هيمنة المؤثرات الأجنبية إلى حد الاستلاب الكامل حتى وقت قريب ، والثانية محاولة ابتعاث المكونات التقليدية الموروثة وتشكلها النقدي الحديث ، على أنه تراث عريق وقابل لتطويره في نظرية نقدية عربية حديثة . وقد مر النقد الأدبي العربي الحديث بمراحل تصارعت فيها هاتان المسألتان ، ونتج عنهما معضلات كثيرة .

تعالقت هاتان المسألتان مع مجموعة من القضايا المتعلقة بالخطاب النقدي العربي المعاصر ، مثل مفهوم الأصالة والمعاصرة ومكانته في تحديد الهوية القومية ، وفي مقدمتها السمات النظرية النقدية ، وتفاقمت إشكاليات هاتين المسألتين عند القطيعة المشتركة مع التراث النقدي وتثميره في المناهج النقدية الحديثة إزاء تأصيل النقد وعصرنته ، ولا يخفى أن التحاور بين المسألتين هو الأكثر فائدة لرسوخ التجارب النقدية العّربية الحديثة وتفاعلها مع هذه الاتجاهات النقدية الحديثة بما ينفع في تأسيس ممارسة نقدية عربية لا تنقطع عن موروثها النقدي من جهة، وعن تواصلها مع حداثة النقد من جهة ثانية .

ثمة قضايا أخرى هامة في هاتين المسألتين ، ومن أبرزها التطوير العلمي والمعرفي والأكاديمي في المجالات النقدية ، وتمتين عُرى وعي الذات ووعي الآخر ، لترسيخ الخصوصيات الثقافية والنقدية ، وضبط النقد القائم على الشفافية والموضوعية في أبعاده السياسية والثقافية ، وإدغام التحديث النقدي بموروثاته المتعددة من جهة، وبمجتمع المعرفة والثقافة الرقمية من جهة أخرى ، وتعزيز الخطاب النقدي العربي الحديث في بعده الحضاري المستند إلى الجذور العميقة في تراثه الثّر ، ولا سيما مفهومات التسامح والتعددية و التمثيل الثقافي ، طقوساً، وأعرافاً ، وعقائد ، وأدياناً ، وعادات ، وتقاليد .... إلخ ، وتؤثر هذه القضايا في مزايا الهوية القومية، وهذه الخصائص والعناصر لا تنفصم عن المرجعيات اللغوية والفكرية في الثقافة العربية.

أهمية البحث وأهدافه ومنهجيته:

أعالج في هذا البحث عمليات تأصيل النقد العربي الحديث على وجه الخصوص . وقد مارس عشرات النقاد العرب هذه العمليات ، ولا سيما مناهجه ، طلباً للموضوعية والعلم والتقليدية ، بمعنى إدراج النقد ضمن تقاليده الأدبية والنقدية ، ويفيد التأصيل استنهاض الأصول والاستمرار في السعي المشترك لتحديثها ، وبرز في هذا المسعى نقاد ألمعيون عرفوا بجهودهم المتألقة في تأصيل النقد العربي الجديد في رحلة التحديث الشائكة والمعقدة، من خلال العناية بالأنساق الثقافية والنقدية واللغوية ، واعتمال الناقد العربي الحديث بتاريخه وذاته ، وهذا جلي في أعمال جورج طرابيشي ، وخلدون الشمعة ، ومحي الدين صبحي ، وانطون مقدسي ، وشكري فيصل (سورية) ، وجبرا إبراهيم جبرا ، وسلمى الخضراء الجيوسي ، وإحسان عباس ، ومحمد يوسف نجم ، وحسام الخطيب (فلسطين) ، وخليفة التليسي ، وأحمد إبراهيم الفقيه ، وعلي فهمي خشيم (ليبيا) ، وعبد العزيز المقالح (اليمن) ، ونازك الملائكة ، وعبد الواحد لؤلؤة (العراق) ، ومحمد النويهي ، ولويس عوض، وغالي شكري ، وعزالدين إسماعيل ، ورجاء النقاش ، وشكري عياد ، وعبد القادر القط ، ومصطفى ناصف ، وجابر عصفور ، ومدحت الجيار ، وفاروق عبد القادر (مصر) ، ومحمد صالح الجابري ، ومحمود طرشونة ، وتوفيق بكار ، وصلاح الدين بوجاه ، وعبد السلام المسدي (تونس) وعبد المجيد بورايو ، وعبد الله ركيبي ، وعثمان بدري ، وعبد المالك مرتاض ، وعبد الله حمادي ، ورشيد بن مالك ،

ومحمد المصايف (الجزائر) وحسين علي مروة ، ووجيه فانوس ، وانيس المقدسي ، وميخائيل نعيمة، وجليل كمال الدين (لبنان) ، و ادريس الناقوري ، ومحمد برادة ، ومحمد بنيس ، ومحمد مفتاح، ونجيب العوفي ، وعبد الفتاح كيليطو ، وأحمد المديني (المغرب) ، وإبراهيم عبد الله غلوم (البحرين) ، وخليفة الوقيان ، وإسماعيل فهد إسماعيل (الكويت) ومحمد عبد الرحيم كافود (قطر) ، ومحمود السمرة ، وناصر الدين الأسد (الأردن) ، وعبد الفتاح بومدين و عبد الله الغذامي و سلطان سعد القحطاني (السعودية) ، وعز الدين الأمين (السودان) ... إلخ .

تجلت عمليات التأصيل و التحديث بخاصة في مؤلفات جابر عصفور ، و مصطفى ناصف، ولطيفة الزيات ، و فاروق عبد القادر(مصر) وحسام الخطيب (فلسطين) ومحمود طرشونة (تونس) ومحي الدين صبحي (سورية) لدى وعي المؤثرات الأجنبية وحدود أصالة النقد العربي ، وتلونت جهودهم بالاتجاه الموضوعي أو النقد الجديد الانجلو سكسوني بالدرجة الأولى وتماهيه مع الممارسة النقدية العربية ، لغة ومصطلحاً وإجراءات نقدية .

ربط مصطفى عبد اللطيف السحرتي (مصر) النقد بتجربة الناقد ومعتقداته وأفكاره في مؤلفاته التطبيقية المختلفة ، وهي " النقد الأدبي من خلال تجاربي " (1960) و " دراسات نقدية " (1973) و" دراسات نقدية في الأدب الحديث " (1976) و " دراسات نقدية في الشعر المعاصر " (1981) و"الأصالة الأدبية " (1983) ، وهذا كله شديد العناية بالمقارنة النقدية لتحديث النقد وتأصيله ، ومازج يوسف بكار (الأردن) بين النقد العربي القديم والنقد الحديث في مؤلفاته " بناء القصيدة في النقد العربي القديم ، في ضوء النقد الحديث " (1979)، و " قرارات نقدية " (1980) و " قضايا في النقد والشعر " (1984)، و" الوجه الأخر : دراسات نقدية " (1986) ، و قارن عبد السلام المسدي (تونس) في كتابه " النقد والحداثة " (1983) ، بين الموروثات والأشكال الحداثية توثيقاً وفهرسة لملامسة مقاربة حداثة النقد ، وخاض عبد السلام المسدي (تونس) في رؤى التقليد والحداثة ضمن مؤلفاته الغزيرة مثل " في آليات النقد الأدبي" (1994)[1] ، و"مساءلات في الأدب واللغة " (1994)[2] و " الأدب وخطاب النقد " (2004)[3]، وعضد فيها مساءلاته الفكرية والمصطلحية والتراثية واللغوية ، وأذكر من استجابات التأصيل اللاحقة كتاب تامر سلوم (سورية) "نظرية اللغة والجمال في النقد العربي " (1983)[4] ، وهو بحث علمي يعالج القضية من أصولها نحو التحديث النقدي العربي في جوانبه المنهجية اللغوية وجمالياته ، وتعززت هذه الأصالة عند عبد المالك مرتاض (الجزائر) في كتابه " النص الأدبي : من أين وإلى أين ؟ " (1983)[5] ، و" الكتابة من موقع العدم: مساءلات حول نظرية الكتابة " (1991)[6] ، و ركز عبد الرحمن ياغي (الأردن) في كتابه " في النقد النظري ، نحو حركة نقد أدبي راسخة " (1984) على التنظير توازناً بين التراث النقدي والنقد الغربي، وسعى يوسف عز الدين (العراق) في كتابه " قول في النقد وحداثة الأدب " (1987) إلى التمعن في التجارب النقدية ومدى توافقها بين التقليد والتحديث ، وتقصى سعد مصلوح (مصر) في كتابه " في النص الأدبي : دراسة أسلوبية إحصائية " (1991)[7] مدارات النقد

[1]- المسدي ، عبد السلام : في آليات النقد الأدبي ، دار الجنوب للنشر ، تونس 1994
[2]- المسدي ، عبد السلام : مساءلات في الأدب واللغة ، كتاب الرياض 10 ، مؤسسة اليمامة الصحفية ، 1994
[3]- المسدي ، عبد السلام : الأدب وخطاب النقد ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بنغازي ، 2004
[4]- سلوم ، تامر : نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ، منشورات دار الحوار ، اللاذقية ، 1983
[5]- مرتاض ، عبد المالك : النص الأدبي ، من أين وإلى أين ؟ ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983
6 – مرتاض ، عبد المالك : الكتابة من موقع العدم : مساءلات حول نظرية الكتابة ، كتاب الرياض 61- 62 ، الرياض ، 1999
[7]- مصلوح ، سعد : في النص الأدبي ، دراسة أسلوبية إحصائية ، منشورات النادي الأدبي الثقافي بجدة ، جدة ، 1991

الحديث المتجلية في خصوصيات النقد الأدبي العربي ، وما يتيحه من صياغات عربية خاصة ، ولا نغفل عن يوسف نور عوض (مصر) الذي حلل النظرية النقدية وتعبيراتها عن الإبـــداع الأدبي عند بعض أعلام الأدب في مؤلفـــاته " الطيب صالح في منظور النقد البنيوي " ، و " الرؤية النقدية والحضارية في أدب طه حسين " ، وما لبث أن شرح "نظرية النقد الأدبي الحديث " (1994) في تكوينها الأصيل والحديث في الوقت نفسه .

عني نقاد آخرون بتأصيل الاتجاهات النقدية الجديدة مثل أحمد عثمان (مصر) في كتابه " الأدب واللغة والفضاء " (1995)[8] ، وتداخلت فيه رؤى النقد الحديث وعلاقاته بالعلوم الإنسانية مع جهود نقاد الحداثة ، وتمازجت فيهما الاتجاهات النقدية الجديدة بالموروث النقدي العربي إلى حّد كبير. وبرز جهد رمضان بســـطاويسي محمـــد (مصـــر) في كتابـــه " الجميـــل ونظريـــات الفنـــون – دراســـات في علـــم الجمـــال " (1996)[9] ، واستعاد فيه مستويات الجمال في الدراسات العربية وتمثلاته في النقد الحديث ، وغلب التعريب على مؤلفات عديدة نشداناً للتحديث دون مراعاة معطيات التأصيل لدى تحليل الاتجاهات الحديثة ومنهجياتها في الغرب توثيقاً لمنهجيات الاتجاه الاجتماعي في النقد كالماركسي والبنيوي التكويني ، مثل السيد ياسين (مصر) في كتابه "التحليل الاجتماعي للأدب " (1982)[10] ، وجمال شحيد (سورية) في كتابه " في البنيوية التكوينية – دراسة في منهج لوســـيان غولدمان " (1982)[11] ، ومحمد نديم خشـــفة (ســـورية) في كتابـــه " تأصيل النص – المنهج البنيوي لدى لوســـيان غولدمـــان "(1997)[12]، أي أن هؤلاء النقاد منشغلون بالتحديث أساساً ضمن اتجاهات نقدية محددة ، ولا سيما الاتجاه الاجتماعي في النقد وأشكاله المختلفة وأشير إلى نقاد بارزين ، وأعرض نماذج تمثيلية لشغلهم تدليلاً على طبيعة التأصيل وشؤونه ومناحيه ومراميه ، وهم محي الدين صبحي (سورية) ، ووجيه فانوس (لبنان) ، وعبد الفتاح بومدين (السعودية) ، وعبد الملك مرتاض (الجزائر) .

1 محي الدين صبحي :

مثّل محي الدين صبحي في مؤلفاته النقدية عمليات تأصيل التفكير النقدي ومسعاه الدؤوب لتأسيس النقد الحديث المختلف عن السائد أو التقليدي ، ومثّل أيضاً عافية النقد العربي الحديث زمناً، فخاض صراعاته المحتدمة مؤصلاً لهويته ومجدداً في نزوعاته الحداثية، وواجه محاولات النقل والاستتباع والتهميش الذاتي منذ أعماله الأولى «الأدب والموقف القومي» (دمشق 1976)، و«البطل في مأزق» (دمشق 1979) و«أبطال في الصيرورة» (بيروت 1980)، و«دراسات ضد الواقعية في الأدب العربي» (بيروت 1980).

ثم دعم رؤاه النقدية والفكرية بفيض تعريبه لبعض أمهات النقد الأنجلوساكسوني، ولاسيما عمدتها «نظرية الأدب» لويليك ووارين (دمشق 1971)، وبعث في مؤلفاته النقدية الكثيرة تأسيساً للنقد الجديد بما هو نقد تحليلي وموضوعي صار فيما بعد إلى مدار رؤية شاملة من خلال تثمير الرموز والدلالات في الأنساق الثقافية المعبرة عن خصائص الذات القومية في النقد منهجاً ومعرفة، وتجلى إنجازه أيضاً في كتبه: «الكون الشعري عند نزار قباني»

[8]– عثمان ، أحمد : الأدب واللغة والفضاء ، كتاب الرياض 23 ، الرياض ، 1995

[9]– محمد ، رمضان بسطاويسي : الجميل ونظريات الفنون ، دراسات في علم الجمال ، كتاب الرياض 25– 26 ، الرياض ، 1996

[10]– ياسين ، السيد : التحليل الاجتماعي للأدب ، دار التنوير ، بيروت ، 1982

[11]– شحيد ، جمال : في البنيوية التكوينية ، دراسة في منهج لوسيان غولدمان ، دار ابن رشد ، بيروت ، 1982

[12]– خشفة ، محمد نديم : تأصيل النص ، المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، 1997

(بيروت 1978)[13]، و«شعر الحقيقة: دراسة في نتاج معين بسيسو» (بيروت 1983)[14]، و«الرؤيا في شعر عبدالوهاب البياتي» (دمشق 1985)[15]، و«قصائد رؤوية» (دمشق 1987)[16].

قدمت تجربة محيي الدين صبحي الإبداعية الثرة سيرة الناقد العربي الحديث بامتياز من وعي التراث واستمداده عناصر في تحديث النقد إلى وعي الذات في خضم تحديات الآخر الماحقة، وهذا ما عزز شغله العميق والضاغط على الوجدان في مباشرة تفكيره القومي حين وضع كتابه المميز «الشخصية العربية في الكتابات المعادية» (طرابلس 1979)، وقد تفاقمت نبرات الشجن القومي في روحه ويراعه، فألف كتابيه المشحونين براهن الفاجعة القومية: «الأمة المشلولة: تشريح الانحطاط العربي» (بيروت 1997)، و«عرب اليوم: صناعة الأوهام القومية» (بيروت 2001).

أشير إلى ممهدات تفكيره النقدي في مسعاه الدائب لتأسيس النقد الجديد المختلف عن السائد في عدد من مؤلفاته.

مارس محيي الدين صبحي النقد الجديد دون ممهدات نظرية أو فكرية موغلاً في التطبيق فيما هو أقرب إلى النقد النصي مواجهة لانتشار النقد الأيديولوجي وألوانه المختلفة التي غطت الساحة الثقافية العربية خلال عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وقد استفاد ضمناً من الفهم الغربي لنظرية الأدب الذي يعتمد على داخل النصوص بالدرجة الأولى، وما تظهره من مواقف، وهذا هو جوهر تفكيره النقدي الذي ظهر جلياً في كتابه «الأدب والموقف القومي»[17] . وقد اختار فيه مقالات وأبحاثاً مما كتبه إثر الهزيمة العربية في الحرب الحزيرانية عام 1967، فتناول الشعر والموقف القومي في الشعر العربي القديم ، على سبيل الإشارة لأصول الشعر والحياة، وعلى سبيل تلمس خصائص الموقف القومي في بعض مجموعات شعرية حديثة لمحمد مهران السيد وأمل دنقل وممدوح عدوان وسواهم بوصفهم شعراء مناضلين لا مسلوبين، ثم نظر في أدب المرحلة من جانبين: جانب «المسرح السوري في الستينيات» (1960–1970)، وجانب «ظواهر من تغير الحساسية الأدبية في السبعينيات»، وخلص في الجانب الأول إلى تغليب البعد القومي عاضداً للبعد الاجتماعي والإنساني، على «أن الأدب خبرة في الحياة منظمة بحسب تقاليد نوعية، أي تخصّ نوعاً من أنواع الأدب. وما لم يظهر لنا الكاتب خبرته بالحياة، ومعرفته بخفايا النفس البشرية وقدرته على استخلاص أقصى ما يحمله الموقف من احتمالات وانفعالات يسوقها المؤلف دون تعسف نحو القضية التي يريد إقناعنا بها ــ عقلياً وشعورياً، فإنه سوف يسقط على الطريق. إما في المباشرة الفجة.. وإما في الإحالة.. وإما في الانحراف عن الهدف»[18].

رأى في الجانب الثاني أن مظاهر الحساسية الأدبية المتغيرة التي عرضنا بعض جوانبها في هذا المقام، سوف تؤدي إلى المزيد من الوعي القومي والتفتح السياسي وتحرر الضمير العربي من كلّ الأغلال والمواضعات

[13]– صبحي ، محي الدين : الكون الشعري عند نزار قباني ، دار الطليعة ، بيروت ، 1978

[14]– صبحي ، محي الدين : شعر الحقيقة : دراسة في نتاج معين بسيسو ، بيروت ، 1983

[15]– صبحي ، محي الدين : الرؤيا في شعر عبد الوهاب البياتي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1985

[16]– صبحي ، محي الدين : قصائد رؤوية ،دمشق ، 1978

[17]– صبحي ، محي الدين : الأدب والموقف القومي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1976

[18]الأدب والموقف القومي، المصدر السابق، ص154 – 155

التي تحجب عنه صفاء الرؤية القومية لأبعاد معركتنا في سبيل وحدة أمتنا وبقائها حية فاعلة في تاريخ البشر وحضارتهم»[19].

نلاحظ أن مرجعيته الرئيسة في النظرية النقدية هي المصادر " الأنكلوسكسونية " مثل رينيه ويلك ، وأوستن وارين ، وا. ا. ريتشاردز. ثم ظهر افتراقه عن النقد الأيديولوجي السائد ، وهو الأقرب إلى " الأرثوذكسية الماركسية " فهماً ميكانيكياً للأدب والفن في علاقته مع خارج النصوص في كتابه «دراسات ضد الواقعية في الأدب العربي»[20]، وقد حوى الكتاب أبحاثاً ومقالات سجالية مع ممثلي النقد الإيديولوجي على وجه الخصوص، فقدم لكتابه بكلمة صريحة هي إعلان «نهاية مرحلة الأدب الواقعي» من خلال مجادلات واعتراضات لطالما أثارها منذ بداية السبعينيات «ضد النظرية الأدبية السائدة باسم الواقعية، وضد وجود منظرين يفرضون كلمتهم باسم سلطة سياسية بدلاً من وجود نقاد ينشرون اجتهاداتهم باسم سلطتهم الأدبية... أما المحصلة الإيجابية لكل المجادلات فهي اكتشاف مبدأ الرؤيا في الأدب وطرحه على أساس أنه يوفر مخرجاً للطريق الذي سدّته الواقعية مثلما هو وسيلة للروائي كي يطرح اقتراحاً بواقع مغاير»[21]

ثم وضع صبحي تنظيره في إشارات سريعة تقوم على «فكرة أن الأدب بناء لفظي يقدم رؤيا، وأن من وظيفة النقد الكشف عن تماسك البناء واتساق الرؤيا» . أما الإشارات، فنختزلها وفق ما يلي:

1- إن التنظير ليس نقداً ولا بديلاً عن النقد.

2- إلغاء محاكمة الأثر الأدبي على ضوء المواقف السياسية والأصول الطبقية لصاحبه.

3- العودة إلى إفراد الخطاب وإلغاء النماذج في الرواية.

4- إلغاء الفكرة المسبقة بأن الأدب يعكس الحياة، وتأسيس تصور جديد حول وجود عالم خيالي في الأدب لا يتطابق مع الواقع.

5 - إسقاط مفهوم «المعنى» من الأدب، وإحلال مفهوم المضمون مكانه.

6 - من الممكن، عملياً فصل الشكل عن المضمون في النثر التخييلي.

7- إن علة التخييل العربي لا تأتي من انفصال الأديب عن الواقع، بل من شدة استغراقه فيه، استغراقاً يؤدي إلى استبعاد الخيال من الأدب.

8- علاج الاختلال في بنية الرواية العربية الحديثة ليس بالمزيد من الواقعية ، بل بالمزيد من الخيال الحرّ الطليق، الخيال غير المعلب أو المقولب.

9-يغتني المضمون الروائي بالأفكار التي تصطرع لجلاء الموقف، في حين أن الروائي العربي، باعتماده على النماذج، يحذف العنصر التأملي في التفكير، ويجري الحوار بحسب " كليشيهات " المذاهب الماركسية أو الفرويدية أو الوجودية.

10- بعد أن أقفرت الرواية من الخيال، وأفرغت من الواقع، وحُرمت من التفكير، غدت صورة مسطحة من الواقع، مما استلزم أن تأتي الخاتمة بلا حلّ ولا اقتراح موح.

---

[19] المصدر السابق، (ص177).

[20] دراسات ضد الواقعية في الأدب العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980 ص 5

[21] دراسات ضد الواقعية، المصدر السابق، ص36

11- بما أن الأدب أدب والواقع واقع، فإن هذا ينطوي على مفارقة أن الأدب شمولي ، والواقع محلي مرحلي، وللتوفيق بينهما وإدراجهما ضمن المرحلة التاريخية التي نعيشها، اقترحنا أن تكون الرؤيا حول مستقبل الدولة القومية المرتجاة.

12- إن العالمية مفهوم ملتبس، والأديب العربي يطمح للقفز إليها، إما عن طريق المحلية الضيقة أو بواسطة التعميمات المجردة التي تمنحها الأيديولوجيات لمقولاتها، وفي الحالتين يتم تجاوز المرحلة القومية إزاء الضغوط الخارجية .

13- وأياً كانت المضامين الاجتماعية التي يتبناها الأديب، فإنه لا يمكن أن يكتب أدباً تقدمياً ما لم ينطلق من مفهوم قومي ضد التجزئة.

14- إنّ كّل تنظير أو نقد للأدب العربي المعاصر يجب من كلّ بدّ أن ينطلقا من الوضع القومي المتردي ، ويعودا إليه، وكلّ لجوء إلى مقاييس أخرى تعجز عن تفسير الأدب والواقع.

15- خلاصة ما سبق أن أديب الأمة يتحرك ضمن الرؤيا الجماعية والتراث المشترك لأبناء أمته وعصره، أما أديب المرحلة فهو الكاتب المحدد بالواقع القائم.

لا يخفى أن «تنظير» صبحي في مقاربة النص الداخلية ضمن عمليات تأسيس النقد الجديد بالمواءمة بين معطيات النقد الجديد " الأنكلوسكسوني " والتقاليد الأدبية والنقدية العربية لم يخرج عن طبيعة النقد الأيديولوجي الذي يحكم مفهومات سابقة على التجربة الأدبية في تشكيل النص الأدبي، وقوام هذه المفهومات السابقة هو الفكر القومي من وجهة نظره، مما يجعل الأدب خاضعاً لتبعات التفكير القومي التي لا تتجلى مباشرة في الموضوعات جميعها، وهو أن تفكيره في الممارسة الأدبية ناجم عن اختلافه مع النقد الأيديولوجي السائد ، كما أشرنا، وظهر هذا الاختلاف في مساجلاته النقدية الكثيرة التي جمع قسماً منها في هذا الكتاب، فحمل البحث الأول اسم «أزمة الواقعية في واقع الأدب العربي»، ودعا فيه إلى أن يحمل الأدب في طويته بعداً ميتافيزيقياً ــ حضارياً يبشر بمصير للفرد والأمة، «لأن رسالة الأدب هي الدعوة إلى تحقيق التطلعات القومية والتعبير عن تجربة الأمة بمجموعها في صراعها مع الحياة وما بعد الحياة» 21. ويتساءل المرء عن انسجام مثل هذه الآراء وجدواها فيما يخص البعد الميتافيزيقي وما بعد الحياة.

ثم طبّق منهجه النقدي في المبحث الثاني، وعنوانه «سيزيف العربي يمشي على محيط الدائرة: دراسة في خواتيم رواية السبعينيات»، وانطلق في مطلع مبحثه من إدانة موجة الإرهاب النقدي العربي الجدانوفي التي سعت إلى فرض مبدأين: «الأول، أن على الأدب أن يتقيد بالواقع المحلي المرحلي، والثاني أن خاتمة الرواية ضرورة، أن تكون متفائلة[22] .

وتدخل هاتان الخصيصتان في مناداة منظّري الواقعية الاشتراكية في وجهها الرسمي بخصائص إيجابية من شأنها أن تفعل وظيفة الأدب في بناء الحياة، ولكنها سرعان ما شحب حضورها في النقد الأدبي السوفييتي إبان كتابة صبحي لها، وإن «تشدق» بها نقاد الواقعية الاشتراكية العرب وأدباؤها المنقطعون عن فهم التطورات الأدبية والنقدية العالمية بعامة والسوفيتية بخاصة.

عمد صبحي إلى تحليل نصي، دون أن يأخذ بمعطيات النقد الجديد تماماً ، وقد ركز فيه على فكرة المأزق الذاتي القومي في اندغام حركة البطل أو الشخصية في الحراك الاجتماعي والسياسي العام، ولطالما عالجه من قبل

[22] المصدر السابق، ص 43

في كتابه «البطل في مأزق: دراسة في التخييل العربي»[23]، وأعاد بعض أبحاثه ومقالاته في كتابه الآخر «أبطال في الصيرورة: دراسات في الرواية العربية والمعربة»[24] معمقاً فكرة تعبير المأزق الذاتي عن المأزق العام في حال الصيرورة بلوغاً لتأمله الفكري في زعمه أنه يقصد «إلى إرشاد الروائيين العرب نحو ينابيع فنية مفعلة، قوامها البحث عن الهوية»[25]، وذكر مآزق متعددة، مثل المأزق العاطفي في قصص «اختفت النجوم» لأحمد إبراهيم الفقيه، والمأزق الفردي في رواية «الياقوتي» لعبد النبي حجازي، والمأزق الجنسي في رواية «أحزان الرماد» لوليد إخلاصي، والمأزق الطبقي في رواية «وردة الصباح» لعادل أبو شنب، والمأزق الثوري في رواية «ألف ليلة وليلتان» لهاني الراهب، والمأزق الطائفي في رواية «الممر» لياسين رفاعية، والمأزق الإقليمي في رواية «بستان الكرز» لقمر كيلاني، والمأزق الثقافي في رواية «كوابيس بيروت» لغادة السمان، وأورد نماذج من الرواية التي تناولت المصير الفلسطيني ليدغم بعد ذلك كله فكرة البعد الميتافيزيقي والرؤيا والتأمل في إطار تحرير مخيلة الروائي العربي من إسار الواقع وإطلاقها في اتجاه بناء المستقبل العربي، ليحرر فكره من إرهاب الأنظمة السياسية وأتباعها، ويشق «طريقاً إلى المستقبل عجزت هذه الأنظمة عن تحقيقه. وبهذا لا يكون طليعياً فقط، وإنما يحمل أدبه تأثيراً مطهراً لقرائه، فيشفيهم من عمى المحدودية التي تبلتهم بها الواقعية، ويطور استجابتهم للشعارات المطروحة بحيث يحاكمونها حسب الرؤيا المستقبلية التي تكونت لديهم من نتاج الأدباء العرب المستقبليين» [26]

يتساءل المرء أيضاً عن تناغم هذه الآراء وتداخلها في تكون مفهوم نقدي مناهض للواقعية ما دام صاحبه مستغرقا في التحكمات المضافة إلى طبيعة الأدب وفي التحليل الشارح للنصوص بتأثيرها، فهل صحيح أن ما ورد من قصص وروايات محدود باســم المأزق المذكور؟ وهل يمكن فصل هذا المأزق عن غيره بهذا التبسيط؟... الخ.

غير أن صبحي لم يكتف بمساجلة الماركسيين ورواد الواقعية الاشتراكية أمثال حسين مروة وجلال فاروق الشريف في بحثيه «في المضمون القومي والطبقي لفكرنا الحديث» و«ماذا تعني مشكلة المضمون عند حسين مروة؟»، بل مدّ السجال إلى الحداثيين أمثال الياس خوري في بحثه «الحداثة ضد الحداثة» وإلى رواد التحليل النفسي في النقد الأدبي أمثال جورج طرابيشي في بحثه «الحكيم على سرير بركروست» مطلقاً العنان لتحكمياته المسبقة على التجربة الأدبية بقوله:

«فالحداثة ليست في الشكل ولا في المضمون ما لم تكن نابعة من الأفق الحضاري القومي ومحيطة به لكي تجذبه إلى التحقق»[27].

لعلنا نؤكد أن مجاوزة صبحي لهذه الحال النقدية في كتابته إلى تأسيس النقد الجديد بدأت مع كتابه المميز في بابه وفي مشروعه النقدي، وهو «الكون الشعري عند نزار قباني» ، وقد عمّق شغله النقدي نحو إنجازه العلمي في جهوده الكبيرة لتعريب أمهات كتب النقد الجديد من جهة، وفي نزوعه الغامر لتأصيل النقد في كتبه الكثيرة من جهة أخرى، وأبرزها «دراسات كلاسيكية في الأدب العربي» (اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق 1980) و«ودراستان: 1. من قتل بشار؟ 2. الخير والشرّ في لزوميات أبي العلاء» (وزارة الثقافة ــ دمشق 1981)، و«نظرية الشعر العربي من

---

[23] صبحي، محي الدين : البطل في مأزق، دراسة في التخيل العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1979

[24] صبحي ، محي الدين : أبطال في الصيرورة ، دراسات في الرواية العربية والمعربة ، دار الطليعة ، بيروت ، 1980 .

[25] ابطال في الصيرورة، المصدر السابق، ص7

[26] أبطال في الصيرورة، المصدر السابق، ص108 .

[27] المصدر السابق، ص187 .

خلال نقد المتنبي في القرن الرابع الهجري» ، و «شاعرية المتنبي في نقد القرن الرابع للهجرة» (وزارة الثقافة ــ دمشق 1983)، و«نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا» (الدار العربية للكتاب ــ طرابلس ــ تونس 1984)، و«قصائد رؤيوية من العصر الحديث إلى الجاهلية» (وزارة الثقافة ــ دمشق 1987).

صارت جهود صبحي في تأصيل النقد الأدبي العربي جلية بتواصله مع الاتجاهات الحداثية استفادة من معطيات النقد الجديد على وجه الخصوص .

2 عبد الفتاح أبو مدين :

اهتم عبد الفتاح أبو مدين بالتفكير النقدي والبلاغي واللغوي الموروث ، ولا سيما المنهج الدلالي والمعرفي المبني على عناصر التمثيل الثقافي ، وأعرض كتابه " وعلامات "[28]أنموذجاً لعمليات التأصيل.

جمع عبد الفتاح أبو مدين عدداً من بحوثه ومقالاته الفكرية والأدبية والنقدية في كتابه العاشر «وعلامات» ، ويشير العنوان إلى الاستفادة من المنهج الدلالي والحقول الدلالية في الكتابة النقدية، لتظهر علامات موضوعاته وإشاراتها إلى المعاني والقيم، تعزيزاً لكتبه النقدية السابقة خلال العقود الثلاثة الأخيرة «أمواج وأبثاج ــ نقد أدبي» و«في معترك الحياة ــ موضوعات نقدية واجتماعية» و«الصخر والأظافر ــ في النقد» و«حمزة شحاته ــ ظلمه عصره» و«هؤلاء عرفت» و«الحياة بين الكلمات».

لقد حرص أبو مدين على تعميق نقده اللغوي الدلالي بالإفصاح عن جوهر المعنى إزاء العلائق بين الثوابت والمتغيرات وتأثيرها على التفكير الأدبي، فعالج «خصوصية الثقافة العربية في عصر العولمة» من خلال مرتكزاتها وأعماقها التي تتلخص في:

1- تاريخ الأدب، منذ فجر التاريخ، من شعر ونثر.

2- القرآن الكريم.

3- السنة النبوية المطهرة.

4- الفقه الإسلامي.

5- التاريخ العربي العام.

هذا هو العمق الأساسي للثقافة، عنده، بل هي أعماق، لو أن دارساً تفرّغ إليها، بحثاً واستقصاء، لخرج بالشيء الكثير من هذه الكنوز الثرة ، التي انداحت في مجلدات كثيرة، فيها العمق والشروح والحواشي والتعليقات الكثيرة، التي كونت ثقافات من ثقافة، تعني الشمول والأعماق، لهذه الثروة الفكرية، التي قد تبدأ منذ سبعة عشر قرناً إلى اليوم، وما زالت الإضافات والمنجزات عبر البحوث والدراسات ، كروافد تثري ثقافتنا العريقة، التي حفظت عبر هذه الأحقاب التاريخية الطويلة، لم تندثر، ولم تهجر، كما هي حال بعض الثقافات واللغات الأخرى، مثل اليونانية واللاتينية وغيرهما، التي أصبحت في المتاحف، ولم تعد لها حياة متجددة، كحال لغتنا وثقافتنا العربية، وستبقى العربية وثقافتها مع تطاول الأيام حية متداولة بين الناس، ما دام هناك ناطق باللسان العربي على البسيطة.

رأى أبو مدين أن بلداننا هي أولى البلدان التي أصيبت بمساويء العولمة، لما حباها الله من كنوز في بواطن أرضها، وقد دفعتنا أنماط النعمة إلى سبل الترف، ولم تعد لدينا مؤسسة البيت؛ تقوم على ما كانت عليه من الأركان الثابتات، بل أضحت في حلّ من نماذج أصول موروثة وأركان ثابتة قائمة، أهمها دور الأم في رعاية أبنائها والقيام على شؤونهم؛ في المأكل والملبس والتعليم وسائر أمورهم. وإن فقد الطفل مدرسته الأولى التي هي أساس تكوينه

[28]أبو مدين، عبد الفتاح : وعلامات، الرواد للدعاية والإعلان، جدة، 2004

النفسي واللغوي والعقلي، فإنّ المدارس بعدها لن تستطيع بحال، أن تؤدي دورها، ولا تقويم الغصنْ الذي استد إلا بجهد مضاعف، ليس بملكنا تحميل ثقله كاهل المعلمين، إلاّ ما تحملته ضمائرهم المخلصة.

حلل أبو مدين تفصيلاً لقضية وعي العولمة وتأثيرها على الثقافة العربية «الإسلام وقيم العصر ــ القيم الإنسانية بين روابط الاتصال وعوامل الانفصال»، وعرض لثلاثة مذاهب مهيمنة على الفكر الإسلامي هي:

– مذهب رافض لكل جديد منكفئ على القديم اختار الجمود بالدين.

– مذهب اختار القطيعة مع الماضي جملة، قابل للتجديد والحداثة وما بعدها ، وكل ما هو آت بتلقائية الحواس المدعمة بوهم التنوير تحت الصدمة والدهشة.

– مذهب حمل مهمة التوفيق بين طرفي المعادلة، وهو غالباً ما نحا منحى التلفيق المخل بهذا أو بذاك .

نبّه أبو مدين إلى العناية بعلوم الاتصال الدالة على مجتمع المعرفة والثقافة الرقمية، فقد كان من الطبيعي أن يعمل العلم وتقنية المعلومات والاتصالات، والحواسب، والشابكات ، والفضائيات، على الوصل والتقريب بين بني البشر، لكن يبدو أنه لم ينته التاريخ بعد، ذلك أن الإنسان وإن تجرد في منجزاته العلمية التقنية تظل نوازع الخير فيه في صراع مرير مع قوى الشر، فإما غالب أو مغلوب. فإن كان غالباً كانت إنجازات علومه التعميرية متقدمة بشكل يحقق الأمن والسلام، ويعممه وإن كان دون ذلك ــ أي مستسلماً لقوى الشر فيه فإن صناعة الأسلحة هي التي تطغى بحيث ينفق، وأورد أبو مدين مثالاً تطبيقياً، «في عام 1982 لهذا النوع من السلع (650 مليار) من الدولارات وهو ما يوازي أربعة أطنان من المتفجرات لكل وجه على هذه الأرض، وفي نفس السنة هناك 50 مليوناً من البشر في العالم الثالث يعانون من الجوع». من هذا المنطلق تأتي أهمية نظرة الحضارة ــ أيُّ حضارة ــ للإنسان، ومن خلال هذه النظرة أيضاً باستطاعتنا تحديد الاختلافات الأساسية التي توجه الأمم والشعوب، ونحاول أن نبني المقاربات مؤسسة على الحوار، في غير رتق مخل.

يكمن جوهر رأيه صوناً للفكر الإسلامي الممثل للقيم الإنسانية في تعضيد الحوار الحضاري لتعديل مسارات ضغوط العولمة واشتراطاتها، فالقول الرومانسي المأثور الذي لا زال بعضنا يردده في اطمئنان «إن العالم أضحى اليوم قرية صغيرة» لم يعد مواكباً لأسئلة العصر على ما يعتقد أبو مدين، لأن الإنسان يكتشف يوماً بعد يوم أن هذه القرية، إنما هي المخبر الذي صنعته القوة المتحكمة في العالم لتجعل كل الناس، ودون استثناء تحت مجهرها، وهي تعمل لا إلى إيهام العالم بنجاعة مشروعات تحرير التجارة الدولية، وإعادة الهيكلة، وإسقاط الحواجز، والحدّ من تدخل الدولة بالخصخصة فحسب؛ وإنما يقصد فرض نمط قَيمِيّ مسقط من أعلى، جاهز مُقَوْلَب، يهدف إلى نسخ نموذجها بشكل ماسخ، في تعويم الذوق والطباع والميول الأمريكية الخاصة، وتستعمل لتحقيق الجانب الاقتصادي من هذا المشروع المؤسسات القابضة على الرقابة المالية للتداول النقدي العالمي الممثل على وجه الخصوص بـــ «البنك الدولي»، و«صندوق النقد الدولي». وعلى المستوى الثقافي «باختراق» العقل الإنساني حيثما كان بوسائل الصورة الجاهزة، ووسائط الإعلام و الاتصال عموماً، والغاية هي خلخلة وإضعاف قدرات العقل لحساب الحواس والغرائز في عملية لتغييب السؤال والحوار، وإحلال التلقين في سلخ واضح لفعل «التلقي»!

ينهض الحوار الحضاري على الوعي والمسؤولية عند أبو مدين، و«يبدو أن الطريق لا يزال طويلاً أمام الفقراء حتى يصلوا إلى طعامهم، لأن الإنسان تفصله مسافات شاسعات عن التحرر من سجنه المادي والمعنوي، وفي انتظار ذلك علينا نحن الأمة الحقيقة بهداية البشرية إلى قيم الحق والعدل والحرية، وعلى العلماء والفلاسفة والأدباء منا على وجه الخصوص، تحمُّل المسؤولية الملقاة على عاتقنا والتحرر من أوهامنا الماضية المغرقة في

القدم باسم الدين ــ الذي هو براء ــ أو الحاضرة القافزة على الواقع باسم «التنوير» الذي حولناه إلى تضليل. لأجل الأخذ بأسباب الرقي الحقيقية على أسس من التبصر العقلاني العلمي، وفي إطار من الحوار الشوري المثمر بيننا أولاً ثم بيننا والعالم ثانياً، يومئذ نستطيع الارتقاء إلى قوله عز وجل {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله} «آل عمران، آية 110» [29]

وضع مقابلة جدالية عن «المتنبي شاعر كلّ العصور»، وذكر أن أبو العلاء المعري قال عنه: «ما رأى الناس ثاني المتنبي». وفي عام 1961 في صالون أديب العربية الكبير عباس محمود العقاد، قال سائل: إن المتنبي كثير الاعتداد بنفسه، فرد العقاد على الفور: الذي يقول إنه يستطيع أن يصنع طائرة ويحقق ذلك، فمن حقه أن يفاخر بما صنع، والحديث يطول عن المتنبي العبقري!.

أعاد أبو مدين قراءة العديد من الموضوعات الفكرية والأدبية والنقدية بما يفيد في تعمق التفكير الأدبي مثل مناقشة الوجه الحضاري عند الحجاج بن يوسف الثقفي في تاريخ الإسلام، وهو موضوع شديد الاختلاف بين المؤرخين والمفكرين، ولا مجال لعرض هذه المناقشة العلمية المطولة[30]، التي برهن فيها عن استقطاب الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، المؤسس الثاني للدولة الأموية، لعديد الرجال أمثال الحجاج لما اقتضته الفتن والمواجهات الصعبة التي واجهتها الدولة آنذاك.

تناول أبو مدين بالتحليل قضايا تطوير الجامعات العربية لمواكبة حركة الحياة، وقضايا انتشار القراءة للجميع، وقضايا ترسيخ قيم المقاومة في الحياة العربية من الداخل فيما سماه «علم الجهاد» لنفي كلم الذات أي الذات المجروحة. وخصّ بالتحليل قضايا أدبية ونقدية مثل الواقع والخيال في الأدب من خلال مسرحية «مجنون ليلى» لأحمد شوقي، والمقارنة الأدبية من خلال موضوعين رئيسيين هما «شوقي والمتنبي» و«محمود شاكر وطه حسين» توكيداً على الأبعاد الفكرية للأدب والنقد.

أضاء كتاب «وعلامات»، كما لاحظنا، العديد من القضايا الفكرية والأدبية والنقدية بروح المعرفة الحديثة عند أديب معروف ينتمي إلى الاتجاه التقليدي الراسخ.

3- وجيه فانوس :

عني وجيه فانوس في التأصيل النقدي بأمرين أولهما جمالية الرؤى الفكرية والفنية ، وثانيهما التمازج بين التنظير والتطبيق في عمليات التأصيل ، وأتوقف عند كتابه " مخاطبات من الضفة الأخرى للنقد الأدبي "[31]على وجه الخصوص.

ترسخ النقد الجمالي في تجربة وجيه فانوس (لبنان) النقدية مع كتابه «محاولات في الشعري والجمالي»[32]مازجاً بين التنظيري والتطبيقي من خلال تثمير مفهوم الشعري وفاعليته عبر الجمالي، أما جوهر النقد الأدبي عنده فهو البحث عن الإنساني، لأن الجمالي سبيل رؤية تجليات الشعري. ثم طوّر فانوس نقده الجمالي بإثرائه بمنهجية نظرية التلقي والتحليل البنائي في الوقت نفسه إضاءة للتشكيل الفني من جنس أدبي إلى آخر في كتابه الجديد «مخاطبات من الضفة الأخرى للنقد الأدبي» 0 وقد قصد فانوس إلى تحديث المناهج النقدية بأبعادها

[29] وعلامات، المصدر السابق، ص 188- 189

[30] وعلامات، المصدر السابق، ص29 – 142

[31] فانوس، وجيه، مخاطبات من الضفة الأخرى للنقد الأدبي، اتحاد الكتاب اللبنانيين، بيروت، 2002

[32] فانوس ، وجيه : محاولات في الشعري والجمالي ، اتحاد الكتاب اللبنانيين ، بيروت ، 1995

المعرفية العميقة في ممارسته النقدية الواسعة التي تقوم على مفهوم القراءة بما هي «تفكيك المعطى الفكري أو الأدبي، وإعادة تركيبه بما يتفق وحقيقة تفاعله مع الواقع، كما تتوافق على هذه الحقيقة نظرة المجتمع الذي نحن فيه ومنه»[33].

تبدى المنهج في تطويع تقانات المناهج المعرفية والنقدية الحديثة لدراسة النص الأدبي وإجراءاتها ، فعالج في المبحث الأول «مستقبل النص الأدبي» بالتوكيد على نوعيته المميزة للتشكل التمايزي الذي يؤدي غالباً، إلى تحقق مفاهيم جديدة ومعان مختلفة ومجالات منفتحة على احتمالات لا حصر لها. ورأى أن تغير المعايير أو المنارات الدالة على أدبية النص لا تنفيه، «إذ لابد من التقرير بأنه طالما هناك إنسان قادر على التفاعل مع بيئته وزمنه، فهناك ذائقة أدبية، وطالما هناك ذائقة أدبية، فإن النص الأدبي يبقى وجوداً حياً فاعلاً ومنفعلاً، كما يبقى مجالاً رحباً وصادقاً للتعبير عن حيوية الإنسان الذي يتعامل معه»[34].

نظر فانوس في المبحث الثاني إلى «فاعلية النقد الأدبي» التي تتشكل عبر تحول النقد ممثلاً بالأفكار الواردة في النص النقدي، من وجود بالقوة إلى وجود بالفعل، أي من خلال تحول النقد من حال المكتوب إلى حال المعيش. فالمكتوب، بحد ذاته ليس سوى فعل توصيف لما هو حاصل عبر محوري التأريخ أو التحليل، أما المعيش فممارسة للحياة عبر محوري التأثر والتأثير» [35]

تناول فاعلية الأدبي من خلال تنوعات الفعل النقدي، ومجالاته وفاعلية النقد عبر مجالاته. وميّز في أنواع الفعل النقدي التقعيدية (من قاعدة) والإعلامية والتفسيرية والتحليلية والتطبيقية والتنظيرية، و«لكل واحد من هذه الأنواع إمكانيات فاعلة، ترتبط بصورة أساسية، بوجوده، وبنوعية هذا الوجود، وبمدى قدرته على التأثير أو الانتشار عبر الجمهور الذي يتوجه إليه، ومن خلال أساسية الموضوعات التي يتطرق إليها» [36]

استند فانوس إلى نظرية التلقي في تحليل مجالات الفعل النقدي معاينة لأطراف عملية إنتاج الأدب وإعادة إنتاجه وهي المُرسِل والعمل (النص الأدبي) والمستقبِل أو المتلقي والتشكل العام وهو ما ينتج من تلاقي بعض المجالات السالفة الذكر. وأثار في ختام المبحث أسئلة عن فاعلية النقد الأدبي بالنظر إلى فاعلية النص الأدبي ذاته:

«أهو ميل الناس إلى العامية وتفضيلهم اليوم ما هو أقرب إلى سمعهم ولغتهم المحكية؟ أم هو انقسام الشعب إلى موالٍ ومعارض للجديد في الأدب؟ أم هو في عدم الاكتراث بكل ما هو ثقافي؟ أم هو واقع حياتي ما فتئ يبحث عن تجديد وتطوير، وحال ناس ما انفكوا في صراع مأساوي لا نهاية له يلهثون وراء قديم ألفوه، ويطمحون، في الوقت عينه، إلى جديد لم يعرفوه!» [37]

درس في المبحث الثالث «إشكاليات اللغة الإبداعية بين المرسل والمستقبل»، مركزاً على ثلاث منها هي: إشكالية التأسيس التجاوزي، وتقوم على التعارض بين الرغبة في تقديم الإنتاج الأدبي لدى المرسل، والوعي الصارم ــ الحازم لدى هذا الكاتب، بصفته مبدعاً، لضرورة الاستمرار في هدم أو مجاوزة هذا الإنتاج، وإشكالية التفاعل الاغترابي، وتقوم على الضرورة المستمرة في اغتراب المستقبِل عن تقبل أو تلقي ما هو معروف أو أصبح مألوفاً،

[33] محاولات في الشعري والجمالي، المصدر السابق، ص7

[34] المصدر السابق، ص15

[35] المصدر السابق، ص20

[36] المصدر السابق، ص23

[37] المصدر السابق، ص 27

استعداداً لاستقبال ما هو إبداعي، أي غير معروف أو مألوف، وإشكالية الفهم الاختلافي، وهي القائمة في دأب الناقد على فهم ما هو متحصل وتحليله وشرحه وتقعيده والسعي المستمر، في الوقت عينه إلى فهم ما هو مختلف عنه.

وخلص إلى استنتاج عام مفاده أن «إشكالية الكتابة الإبداعية فعل معرفي متكامل ينتظم الحركية الحية للإنسان في تفاعله المجدد والإيجابي مع الوجود. ويمكن لهذه الإشكالية أن تكون أضلاعاً لمثلث واحد. يقوم هذا المثلث على قاعدة وجود أساسية يمكن تسميتها التجاوز أو الانزياح، كما يمكن أن تُرى على أنها توليد للجديد المنبثق من الهدم المستمر لما سبقه، فالإنسان، وفقاً لما يراه بعض الباحثين في تفاعلية العقل الإنساني وقد يعثر إيجاباً من يوم إلى آخر، ومن جيل إلى جيل، وهو يرى، بهذا التغير، جمالاً جديداً فيما حوله، لأن نظرته لما حوله تتغير، كما تختلف مفاهيمه للطبيعة كلما مرّت الأيام ، وازدادت خبرته وقدراته على التعامل مع الحياة»[38]

ثم طبّق فانوس منهجه الذي يعتمد أساساً على بعض معطيات البنيوية والتفكيكية ونظرية التلقي على نص «حدائق وفيقة» لبدر شاكر السياب.

خصص المبحث الرابع لـــ «المتلقي العربي المعاصر وإشكاليات الهوية»، فشرح مفاهيم العولمة والهوية، وأفق توقع القارئ من نظرية التلقي التي تُعرف بـــ «السياق». «وهو ما يمكن أن يكون المحدد الأساسي لاستراتيجيات القراءة، ولا يمكن أن يأتي من خارج المتلقي على الإطلاق، إذ هو جماع ذات هذا المتلقي بما جوانّية هذه الذات، وما تقوم عليه من أمور وعناصر ساهمت في تشكلها وتحديد توجهاتها وقيمها ومفاهيمها ومعايير تذوقها. إنه، بكلمة واحدة، خلاصة ما يمكن للمتلقي أن يحصلّه من تعليم لذاته»[39].

وجد فانوس في تحديد جادامار لمفهوم أفق التوقع فعل تأكيد على أساسية تحقيق الهوية الذاتية للمتلقي، بل إن فاعلية الفكرة لا تجد مرتكزاتها إلا عبر الهوية الجمعية وعبر الفاعلية التي تقوم بها الجماعة في إطار فهم السياقات الثقافية. ولئن وافق ستانلي فيش على حقيقة ظهور قراءات متعددة للنص، فإنه أشار، من جهة ثانية الى أن هذه القراءات تتغير أو تتشكل بتغير الجماعة المفسرة لها. ومن الواضح، في هذا المجال، " أن الجماعة المفسرة هي ما يمكن أن يشكل الخلفية التي تنطلق منها أساسيات لا يمكن إغفالها من حقيقة تشكل الهوية الجمعية. كما أن هذه الجماعة المفسرة لا تستطيع أن تمارس تلقيها من غير أفق ما لتوقعها. والأفق، ها هنا، لن يمكنه إلا أن يكون أفقاً جماعياً ومرتبطاً بحقيقة وجود الجماعة»[40].

عاين فانوس هذه الأفكار من خلال محددات الحداثة والانفتاح وتلاقح الأذواق والصراعية والحوارية، وأكد «أن الهوية العربية تدخل فعل التشويه إذا ما نُظر إليها على أنها هوية سكونية، لكنها تدخل باب الأصالة كلما نُظر إليها على أنها هوية حية وذات حركية نابعة من عمق أصالتها، ومن واقع تفاعلها مع الزمن الذي تعيشه، وعبر آفاق توقعاتها ومسارات هذه الآفاق كما توضحها نظرية التلقي، وتجعل منها نقاطاً أساسية في تحديد استراتيجيات التلقي العربي المعاصر»[41]

عرض الناقد فانوس المبحث الخامس «مظاهر لحركية الفكر العربي عبر الفاعليتين الفنية والاجتماعية للخطاب الأدبي»، على أن الخطاب الأدبي " هو النص الأدبي الذي تحول من أحرف وكلمات وتعابير مدونة على

[38] محاولات في الشعري والجمالي، المصدر السابق، ص 46

[39] المصدر السابق، ص 63

[40] المصدر السابق، ص 65

[41] محاولات في الشعري والجمالي، المصدر السابق، ص 66

ورق أو محفوظة لدى كاتبها أو صاحبها، إلى خطاب منتشر بين الناس يتداولونه، ويغريهم بالتفاعل معه؛ إنه هذا التحول للأدب من كونه نصاً مكتوباً ومحصوراً بوسائل حفظه إلى كونه خطاباً معيشاً من قبل جمهور الناس»[42].

عمد فانوس إلى تطبيق مقولاته النقدية النظرية على نص «كلمات» لنزار قباني. غير أن جهداً آخر رئيساً بذله فانوس في الإحاطة ببعض إشكاليات نظرية التلقي في مبحثه السابع «إشكاليات في الإنتاج المعرفي والدلالي للمصطلح النقدي الأدبي العربي المعاصر بين فرديتي التجريب والتأسيس وضرورة الانتشار الجمعي»، فثمة معضلات كثيرة يورثها استعمال المصطلح، ولا سيما التعبير والتوصيل عبر فاعلية الترميز أو التشفير وحال المصطلح النقدي الأدبي بين الفعل المعرفي وغربة المفهوم وضرورة المحافظة على المحلية أو القومية وحتمية الانفتاح المؤدي إلى مجاوزة كثير من حدود المحليات أو القوميات، والواقع المعرفي العربي المؤدي إلى حتمية الفردية في التجريب والتأسيس وضرورة الانتشار الجمعي للفعل الإنساني، وقد عمل فانوس على إجابات هذه الأسئلة، «فإذا كان ثمة من يرى ضرورة تمسك العرب بهويتهم في هذه الفترة من تاريخهم المعاصر، فإنه من الضروري أن يكون المصطلح النقدي الأدبي العربي، وسواه من أدوات الثقافة العربية، عاملاً موحداً وفعلاً بناء في تكوين الهوية»[43].

برز جهد فانوس النقدي الابتكاري المتميز في مبحثه الثامن «من دلالات تحولات لغة النص الروائي على فاعلية الزمان المجتمعي: أنموذج الرواية الجزائرية ــ دراسة في نصوص للطاهر وطار»، فمّهد لبحثه بالنظر في مفهوم الزمان وإشكاليته في النص الأدبي، فإذا «كان لابد من زمان يحقق فيه هذا الوجود المجتمعي وجوده، وإذا كان لا مفرّ لهذا الزمان من أن يكون حقيقة فاعلة ضمن هذا الوجود المجتمعي، فلقد بات من الطبيعي، والحال كذلك، أن يكون ثمة زمان مجتمعي تقاس به حركة المجتمع الذي ينتسب إليه، ويؤثر بدوره، في وجود هذه الحركة وفاعليتها، فالزمان المجتمعي ليس سوى فاعلية الزمان عبر اجتماع الناس في مكان محدد»[44].

ثم درس فانوس فاعلية الزمان المجتمعي من خلال عنصريه الرئيسين: الزمان والمجتمع، وفصّل الرأي في حركية الناس والقوانين المتبعة والقيم والمفاهيم والعادات والتقاليد والأمور الكونية و القضايا الإنسانية العامة والخاصة، وانتقل بعد ذلك إلى الأدب وفاعلية الزمان المجتمعي دخولاً في مفهوم السياق الذي يسعى الكاتب إلى إظهار مادة النص فيه والسياق الذي يستقبلها القارئ من خلاله، وتفيد هذه الجدلية هوية وجود النص ومفتاح الولوج إلى كثير من حقائق هذه الهوية. وهكذا، «فإن قراءة في دنيا لغة النص، يمكن أن تدل على حركية فاعلية الزمن المجتمعي التي انبثق عنها النص، أو مجموعة النصوص المقترحة للقراءة»[45].

نظر فانوس، تطبيقاً لمبحثه، في خصوصية أنموذج الرواية الجزائرية، ووضع خطة للتعامل مع نصوصها الروائية، وحدد منهجية درس النصوص ودلالات التحول، وقدم قراءة في الدلالات المجتمعية للغة النصوص المختارة للطاهر وطار في مجالات الدلالة المجتمعية للغة النص، وهي التجليات العامة والتراكيب الكلامية والاستنتاجات الناجمة عن ذلك، ومما تشير إليه الدراسة، إن حركية الزمان المجتمعي تبقى باتجاه الآتي، «فالانتقال

---

[42] المصدر السابق، ص 71

[43] المصدر السابق، ص 105

[44] المصدر السابق، ص 115

[45] محاولات في الشعري والجمالي، المصدر السابق، ص121

كان من حال معاناة وجود مفروض إلى حال سعي إلى تحقيق هوية وجود تقوم على محاولات في الاجتهاد الذاتي لتشكيلها وقيامها»[46].

لقد قدم وجيه فانوس في كتابه «مخاطبات من الضفة الأخرى للنقد الأدبي» إضاءات متعددة لعمليات تأصيل النقد العربي الحديث في بيئته ومجتمعه ضمن سياقه الثقافي بما يفيد في تشكل الصيرورات الثقافية والتقاليد الراسخة، تدعيماً لأبحاث الهوية القومية في النقد.

4- عبد الملك مرتاض :

أصدر عبد الملك مرتاض (الجزائر) عشرات الكتب النقدية في الأدب العربي الحديث، ولا سيما القصة والرواية والسرد، مثل «النص الأدبي من أين؟ إلى أين؟» (الجزائر1983م)، و«تحليل الخطاب السردي: معالجة تفكيكية سيميائية لرواية زقاق المدق» (الجزائر1985م) و«فن المقامات في الأدب العربي» (الجزائر1988م) و«ألف ليلة وليلة: تحليل سيميائي لحكاية حمال بغداد» (الجزائر1993م) و«مقامات السيوطي» (دمشق1996م) و«في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد» (الكويت1998م)، و«الكتابة من موقع العدم: مساءلات حول نظرية الكتابة» (الرياض1999م).

يلاحظ أن مرتاض انتقل من المناهج النقدية التقليدية إلى المناهج الحديثة بعامة (العلامية) السيميائية والتفكيكية بخاصة في العقدين الأخيرين، ثم اتجه بنقده إلى الشعر وتحليله النصي مطوّراً ممارسته النقدية إلى منهج علامي (سيميائي) باعثاً في الوقت نفسه الموروث البلاغي والنقدي العربي، كما في كتابه الكبير «قراءة النص بين محدودية الاستعمار ولا نهائية التأويل: تحليل سيميائي لقصيدة «قمر شيراز» للبياتي» (1997م).

ويعد أحدث كتبه «التحليل السيميائي للخطاب الشعري: تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي» (2001م) [47]مثالاً للتركيب النقدي الجديد لمرتاض الذي يواءم بين التقليد النقدي الموروث ومنهج حداثي هو السيميائية.

وضع مرتاض تمهيداً مطولاً حول منهجه النقدي بعنوان «النص الأدبي وحقول القراءة» وضّح فيه إشكالية القراءة السيميائية (العلامية) ، وعزا الاهتداء المبكر إليها في الموروث النقدي العربي، فقد اجتهد كثير «من محللي النصوص من العرب القدماء في أن يركضوا في بعض مضطربات التأويلية أو الهرمينوطيقا التي هي فرع من فروع السيميائية»[48]، وعرض لتعددية القراءة وإجراءاتها مثل تأويل المعنى اللغوي (أو القراءة الدلالية) وتخريج القراءة النحوية (أو نحو النص) . وأفصح عن فهمه للنقد على أنه قراءة: «فليس النقد في شيء من حقيقته إلا قراءة، مجرد قراءة شخص محترف لنص أدبي ما، والأدوات التي يصطنعها في فهم هذا النص، أو قراءته، أي تمثل تأويله على نحو ما، هي التي تحدد أسس المعالم العامة للتحليل الذي ينشأ عن مسعاه الأدبي»[49]

أشار مرتاض إلى التركيبات المنهجية التي تزاوج بين نزعات متعددة أو مختلفة مثل محاولة غولدمان التي ترمي إلى إنقاذ «البنيوية» والنزعة الاجتماعية جميعاً، وبيّن دأبه في قراءته التحليلية «إلى المزاوجة أو المثالثة أو المرابعة، وربما المخامسة بين طائفة من المستويات باصطناع القراءة المركبة التي لا تجتزئ بإجراء أحادي في

[46]المصدر السابق، ص 150

[47]مرتاض، عبد الملك : التحليل السيميائي للخطاب الشعري، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2001

[48]المصدر السابق، ص 7 .

[49]المصدر السابق، ص 8 .

تحليل النص، لأن مثل ذلك الإجراء مهما يكن كاملاً دقيقاً، فلن ينج من النص المحلل كل ما فيه من مركبات لسانية(ونريد النسبة إلى اللسان، لا إلى اللسانيات) وأيديولوجية وجمالية ونفسية جميعاً»[50].

أفاد مرتاض أن معظم المناهج النقدية موروث بعضها عن بعض، وقائم بعضها على البعض الآخر، وذكر على سبيل المثال، أن العرب تعاملوا مع مفهومي التشاكل والتقابل بوعي منهجي ناضج ، كما في تنظيرات عمر ابن مسعود بن ساعد المنذري المتوفي سنة 1160 هجرية في كتابه «كشف الأسرار المخفية». وأثار مرتاض إشكالية منهجية أخرى حول القراءة الحيادية والقراءة المتحيزة والقراءة المتعددة والقراءة المركبة، وناهض فهم غريماس وأصحابه الذي يؤكد على «وجود قراءة جماعية Plurielle لنصوص ما ، أي الذهاب إلى أن نصاً ما يكون قادراً على منحنا عدداً لا نهائياً من القراءات. ويبدو ذلك مجرد افتراض فج يتسم بتعذر الإثبات»[51]. لقد عجب مرتاض لهذا الرأي الذي يوهم بوجود قراءة علمية خالصة العلمية. لنص خالص الأدبية، «وهو الأمر الذي لا نحسب أن غريماس نفسه يؤمن به في قرارة نفسه، مع ما نعلم من لهاث السيميائيين وراء تأسيس قواعد صارمة لسيميائية عبر نظرية اللسانيات، ولكن كل المساعي والبحوث والنتائج، إلى يومنا هذا، لم تستطع أن ترقى في هذا المجال الجديد إلى مستوى النظرية. فكيف، إذن، يصرّ قريماس وأصحابه على مطالبتنا بإغلاق النص، أي بإلغاء كل القراءات الغيرية والتمسك بقراءة واحدة، بحجة أن تعددية القراءة تفضي حتماً إلى تحيز، بل إن هذا الموقف هو الذي يمثل شيئاً من التحيز»[52].

لا يخفى أن مرتاض يستند إلى إرث العلاماتية (السيميائية) في تحليله، وعلى رأسهم غريماس، ولكنه يصوغ في نقده تركيباً جديداً يواءم التقليد النقدي العربي، ويطوّر النظرية النقدية العربية بمنهجيات حداثية، وهكذا محص عناصر المنهج العلاماتي، ولا سيما غريماس في معجمه العلاماتي (السيميائي) ، وخلص إلى ممارسة نقدية منسجمة مع جهده واجتهاده، تنطلق من الجنوح «لتعددية القراءة بتعدد القراء وبتعدد الأهواء وتعدد الثقافات واختلاف الأزمنة وتباعد الأمكنة»[53]

ثم اتجه مرتاض إلى تحديد منهجه فيما يلي:

1- السعي للتطوير المستمر للأدوات المنهجية تأصيلاً وإجراء، فلا يوجد منهج كامل مثالي لا يأتيه الضعف ولا النقص من بين يديه ولا من خلفه. وإذن فمن التعصب (والتعصب سلوك غير علمي ولا أخلاقي أيضاً) التمسك بتقنيات منهج واحد على أساس أنه هو وحده، ولا منهج آخر معه، جدير أن يتبع.

وقد دان في هذا المقام النظرة التقنية (الميكانيكية) إلى النص الأدبي، وأشفق على محمود أمين العالم (مصر) الذي تندرج نزعته الاجتماعية في النقد في مثل هذه التقنية ، فهاله «أنه كان يتحدث كأنه زعيمُ حزب سياسيّ، في حملة انتخابية مصيريّة، ينضّح بشراسة وقوة عن مبادئ حزبه أمام خصوم ألدّاءَ. وكان الشيخ يهاجم في محاضرته البنيويّة والحداثة والسيميائية وكل ما له صلة ببعض هذه النزعات الجديدة في قراءة الأدب وفهمه وتأويله، صراحة؛ وبشكل يحمل على الرثاء له، والإشفاق عليه، والدعاء له بخير. مع أن المسألة في غاية من البساطة؛ على غاية تعقيداتها، فإذا سلّمنا بأن كلّ منهج ناقص، وكل ناقص يفتقر إلى كمال، وكل كامل مستحيل على

---

[50] المصدر السابق، ص 9 – 10.

[51] المصدر السابق، ص 14 .

[52] المصدر السابق، ص 15 – 16 .

[53] التحليل السيميائي للخطاب الشعري، المصدر السابق، ص 17 .

هذه الأرض، اقتنعنا بضرورة تضافر مساعي كلّ الكفاءات النقدية والعبقريات التنظيرية لمحاولة إيجاد مقاربة منهجية تبتعد، ما أمكن، عن النقص والخلل. وتزدلف، ما أمكن، من الكمال دون الترويج بتعصب أعمى لأيديولوجيا معينة، وخصوصاً في عهد جنحت فيه الأيديولوجيات للأفول والذبول، بعد توهج وعنفوان، واغتدى الناس لا يبحثون في أي مبدأ من المبادئ إلاّ على أساس من منفعته إن كانوا ساسة، وإلاّ على أساس من حقيقته وموضوعيته إن كانوا من العلماء»[54].

2- العمل الدائم في سبيل تعميق الرؤية النقدية وتطوير القراءة التاريخية وتوسعتها إلى أقصى الحدود الممكنة والاستظهار بالكفاءة لتفجير الكامن وتوهيج الشاحب وتوضيح الغامض وحصر الشارد والتحكم في المعتاض. ونظرة مرتاض في ذلك هي تأصيل منهجه النقدي في التقليد الذاتي ، لأن «الاشتغال بالمناهج الحداثية يفضي حتماً إلى إنتاج معرفة، بل ربما إلى إنتاج نظرية جديدة للمعرفة على أنقاض ما فكك أو على الأصح قوض، من بناء المعرفة القديمة»[55].

3- أهمية التركيب النقدي الجديد وتأصيله في البيئات الثقافية العربية، إذ يمكن التركيب بين المناهج، وقبله التركيب بين البنيوية والنزعة الماركسية، فيما عرف بالبنيوية التكوينية، والتركيب بين الشكلانية الروسية واللسانيات الدوسوسيرية، إذ نتج عنهما تيار شكلاني هو «البنيوية»، والتركيب الذي استهدفه مرتاض بين الميثولوجيا والفولكلور واللسانيات العامة مما تولد عنها منهجه العلامي . «إن تهجين أي منهج، برأي مرتاض، أمر ضروري لتنشيط أدواته وتفعيل إجراءاته، كيما يغتدي أقدر على العطاء والتخصيب»[56]

4- أهمية تحديد عناصر التركيب النقدي الجديد دون إغفال مواءمته للجنس الأدبي المحلل أو المقروء، ويمكن اصطناع البنيوية اللسانية مع النص الشعري للكشف عن جمالياته وخصائص نهجه، وقد بين مرتاض أن استعماله للعلامية وإجراءاتها في تحليل نص شعري، «فإنما يجب أن يكون للكشف عن نظام العلامات في هذا النص على أساس أنها قائمة بذاتها فيه، لا مجرد وسيط عبثي؛ وذلك بتعرية البنية الفنية له بصهرها في بوتقات التشاكل والتباين، والتناص والتقاين (أو التماثل)، والانزياح الذي يزيح الدلالة عن موضعها الذي وضُعت فيه، أو له في أصل المعاجم، ويمنحها خصوصية دلالية جديدة هي التي يشحن بها المبدع لغته، وذلك بتوتير الأسلوب، وتفجير معاني اللغة، والذهاب في اللعب بعناصرها كل مذهب، وتخصيب نسوجها»[57].

5- استتباعاً لرؤيته المنهجية النقدية، رأى مرتاض تعذر التحليل العلاماتي لنص طويل، نثري أو شعري، لما يتطلب تتبع كل سماته اللفظية والإشارية من تحليل فرداني، ومزدوج. ومركب أو جمعاني، ونحوي، و"مرفولوجي " ، ومتشاكل وغير متشاكل، ومتماثل . ومتحايز (ونريد بالمتحايز إلى إمكان تبادل الحيز (الفضاء): المواقع في النص»[58]

وهذا هو دأب مرتاض في اختيار نصوص قصيرة يسهب في تحليلها كما فعل في كتبه السابقة، وهذا الكتاب الذي اقتصر على تحليل قصيدة واحدة للسياب هي «شناشيل ابنة الجلبي»، ولو أنه مارس تحليله العلامي «على نص

[54] المصدر السابق، ص 18 – 19 .

[55] المصدر السابق، ص 20

[56] التحليل السيميائي للخطاب الشعري، المصدر السابق، ص 21

[57] المصدر السابق، 22 .

[58] المصدر السابق، ص 22 – 23 .

روائي طوله مائتا صفحة فقط لخرج التحليل المكتوب عن هذه الرواية في ألف صفحة أو أكثر من ذلك كثيراً»[59]، ولعلنا نذكر أن تحليله لقصيدة «قمر شيراز» للبياتي، وهي قصيرة، زاد على مائتي صفحة. أما قراءته لقصيدة السياب في كتابه هذا فنهضت على جملة من السياقات ، فرأى مرتاض أن أقمنها بالذكر مجموعة ملاحظات حول بنيتها الشكلية والدلالية هي:

1- الجنوح نحو النسج التشاكلي أكثر من ميله إلى التباين.

2- قيامه من حيث الدلالة على تراكم الانتشار والامتداد أكثر من قيامه على تراكم الانحصار والانجرار.

3- تشكل هذا التباين أو التقابل ، كما كان يطلق عليه عمر بن مسعود المنذري، من التعارض المعنوي، مما يجعل النص نتاج بنيتين: بنية انتشارية وبنية انحصارية.

4- اتخاذ سبيل التعددية التشاكلية Pluri-Isotopit التي تقتضي تناول جملة من المعاني أو الدلالات أو الأسيقة المتراكبة في نص خطاب واحد، إذ بدون تركيب، أي بدون تعددية الإجراء، لا يمكن البلوغ من النص الأدبي المبلغ الذي يكشف عن طواياه، ويبدي عن خفاياه. وقد اجتزأ مرتاض هذه التعددية بأربعة إجراءات سيميائية هي: «التشاكل ــ التباين، والتماثل (تبادل المماثلات المواقع والوظائف فيما بينها داخل النص المحلل)، والتحايز (تبادل الأحياز فيما بينها المواقع والوظائف داخل لوحة حيزية واحدة، أو عدة لوحات من الحيز)، والتقارن (تبادل القرينة مع صنوتها مواقع الدلالات المنبثقة عن التخاصب المشترك بينهما، أو بينهن، أو حتى بينها وبين نفسها...) ، مع الإمعان في متابعة كل ركن من هذه الأركان إلى نحو المظاهر اللسانياتية الأخرى ، إذا رأينا أن بعض ذلك مما يخدم النص المطروح للتحليل. والحق أننا لم نجاوز، بذلك، إطار هذه التعددية الإيزوطوبية (وقد ابتلانا بهذا التعبير الثقيل غريماس) التي تمنح الإجراء التحليلي شيئاً من الحرية في التأويل بحكم تعددية القراءة»[60].

يلاحظ أن مرتاض بنى تحليله العلاماتي على تطويع علم البلاغة العربية والتقليد النقدي والمعرفي الموروث من جهة، وتطويع منجزات الحداثة النقدية في مناهج نقدية متعددة ومتناغمة من جهة أخرى، لحاجات تركيب نقدي تحليلي علامي جديد، تجري القراءة فيه على ثلاثة مستويات هي:

- المستوى الأول: ويرتكز على التماس وجوه التشاكل والتباين في لغة الشعر العربي المعاصر من خلال أحد أكبر ممثلي هذا الشعر، يقصد السياب.

المستوى الثاني: ويقوم على ما يمكن أن نطلق عليه تقويم اللغة الشعرية لهذا النص في الشبكة الحيزية لمحاولة إفراز الأحياز فيه، أو من حوله ، ثم لمحاولة منح الحيز الشعري شكلاً سيميائياً يثب به من دلالته الجامدة إلى مجالات حية متفاعلة متجاوبة متخاصبة مع ما يجاورها، أو يكون له شأن بها.

المستوى الثالث : ويتمثل فيه تحليل هذا النص الشعري من رؤية فنية وتقنية أيضاً قد تكون الممارسة التطبيقية التي جرت عليها؛ على هذا النحو من التفصيل والتركيز ، ربما حدثت لأول مرة في العربية، «دون الوقوع تحت سلطان الغرور والادعاء»(ص4) (لاحظ نبرة الولع الذاتي) ويريد بكل ذلك إلى الجهاز التقني الذي سخرناه لتأويل الألوان والمرئيات، والملموسات، والمشمومات، والمذوقات. «وربما جاوزنا هذه المجالات إلى مماثلات وقرائن أخرى لم يطبق عليها السيميائيون الغربيون؛ على النحو الذي قرأنا نحن عليه. وقد استنبطنا، خصوصاً، القرينة المركبة التي لا تكون بصرية فقط، أو سمعية فقط، أو لمسية فقط، أو شمية فقط، أو ذوقية فقط؛

---

[59] المصدر السابق، ص 23 .

[60] التحليل السيميائي للخطاب الشعري، المصدر السابق، ص 27 – 28 .

ولكن قد تتخذ لها أطواراً مركبة بحيث قد تشتمل على كل هذه الأمشاج فتمنح النص أبعاداً دلالية خصبة ما كنا لنستكشفها فيه لو لم نلتمس له هذا الجهاز الإجرائي الجديد»[61].

غطى التنظير النقدي لتحليل مرتاض العلامي ربع صفحات الكتاب، ثم انغمر في فصوله الثلاثة بالتحليل النصي أو بقراءة نص السياب: التشاكل والتباين، الحيز والتحييز، تحليل بإجراءات المماثل والقرنية. ويصعب على المرء تلخيص هذا التحليل أو هذه القراءة الثرية والممتعة التي تنغمر في أعراف الشعر، ضمن تجربة عربية مخصوصة بلغتها وتقليدها، من خلال تركيب نقدي جديد، لا يقوم بمجرد التوفيق بين تقليد أصيل ومناهج حداثية، ولا يركن لتفريع التحليل البلاغي العربي الموروث أو شكلنة المناهج الحديثة، بل يجاوزها إلى تأصيل منهج نقدي حداثي باستطاعته الثرية على إضاءة اللغة الشعرية وأبنيتها ودلالاتها، واختار نموذجاً لذلك:

«ويتجسد الانحصار في كثير من مقومات الوحدتين الأخيرتين من هذا النص، مثل: لم أرها؛ هواء كل أشواقي (وفي الكلام هنا، انزياح؛ إذ إنما يريد الناص إلى أن كل أشواقه هواءٌ، فوتر اللغة الشعرية، وزيحها تزييحاً)؛ أباطيل (انعدام الموضوع أصلاً)؛ نبت دونما ثمرٍ ولا ورد (رفع الحيازة الحقيقية عن الموضوع (نبْت)، بتجريده من التورد والإثمار).

ونلاحظ، أخيراً، أن هذه اللوحة الشعرية، في تقطيعنا، وتقطيع النص، أصلاً، أيضاً (كما ورد في الديوان مفصولاً بثلاث نجوم) المشتمل على سبع وحدات: تجري خمس منهن في سياق التشاكل المعنوي: لتراكم الانتشار، واثنتان، وهما خاتمتا هذا النص، تركضان في سياق التباين المعنوي: لتراكم الانحصار.

فكأن الحياة بداية متوهجة: الذكرى الحالمة؛ النور الوديع؛ النغم الملائكي؛ العزف الرائع؛ الغناء الندي؛ الصباح الطلي؛ الطفولة المتحفزة؛ الابتسام السعيد (اللوحة الشعرية الأولى من النص)؛ ولكن النهاية شيء آخر: باطل في باطل، وجفاف في جفاف، ويأس في يأس؛ نبْت بدون ثمر، وورد بدون توهج ولا شذى. فكأن حقيقة الحياة ظلام وشقاء ورماد ووهم وسراب»[62].

كتاب مرتاض مسعى آخر لتأصيل منهج نقدي حداثي باستطاعته الثريّة هو «التحليل السيميائي للخطاب الشعري» دون إبهاض التفريعات البلاغية الموروثة، ودون شكلنة المناهج الحداثية الغربية وتزويقها، لنقرأ بعد ذلك كلّه نقداً عربياً حداثياً شديد الإمتاع في إضاءة لغة النصوص وبناها ودلالاتها. ولعل أهمية هذا المسعى تكمن في جهده واجتهاده لتعضيد البحث المؤرق بالهوية .

الاستنتاجات والتوصيات:

سعى عشرات النقاد العرب ، كما أوضحنا ذلك ، إلى تأصيل النقد الأدبي العربي الحديث بتواصله مع الاتجاهات الحداثية المتعددة ، وظهر هذا التوازي في المنجزات التالية :

أ – التوكيد على تطورات النقد العربي في مستوياته المختلفة ، اللغوية والثقافية والأسلوبية، على أن النقد أعمق وأبعد من مجرد إطلاق الأحكام وإبداء الآراء الشخصية .

ب – العناية بالشكل والمحتوى الأدبيين لمدى التوافق مع اتجاه حديث أو أكثر ، لأن الموروث النقدي العربي مبني على المستويات اللغوية ومدلولاتها في صوغ الخطاب النقدي أو الأدبي .

---

[61] المصدر نفسه، ص 41 – 42 .

[62] التحليل السيميائي للخطاب الشعري، المصدر السابق، ص 110 – 111 .

ج – الاهتمام الكافي بمنهجيات الاتجاهات النقدية الحديثة واتفاقها مع التقاليد اللغوية والنقدية والثقافية في الأدب العربي ، وهذا واضح في المناهج المعرفية الناظمة لعمليات التأصيل .

د – اتجه غالبية النقاد إلى الاتجاهات النصية والبنيوية وتمثيلها للأغراض والأهداف والمواقف الظاهرة والكامنة في الأدب والنقد ، ومنها مراعاة العمق الأساسي للثقافة العربية.

هـ – استعادة التقاليد النقدية وتحديثها مجاوزة لمجرد التعريب والترجمة إلى التأليف النظري والتطبيقي واجتهاداته الناظمة والضابطة لاجتهادات التأصيل .

و – تلازم التأصيل والتحديث في النقد مع علوم اللغة والاتصال ومكونات الخطاب الأدبي الظاهرة والكامنة في آن معاً .

ز – اعتمال النقد بالقضايا الفكرية والمعرفية والجمالية للكشف عن الرؤى والأفكار والمستويات الابداعية ، وإبراز السياقات الثقافية والنفسية والاجتماعية ، وضبط التشكلات الأدبية من تقاليدها إلى مستويات التحديث .

المراجع:

1- سلوم ، تامر : نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ، منشورات دار الحوار، اللاذقية ، 1983

2 – محمد ، رمضان بسطاويسي : الجميل ونظريات الفنون ، دراسات في علم الجمال، كتاب الرياض 25- 26 ، الرياض ، 1996

3 – المسدي ، عبد السلام : في آليات النقد الأدبي ، دار الجنوب للنشر ، تونس 1994

4 – المسدي ، عبد السلام : مساءلات في الأدب واللغة ، كتاب الرياض 10 ، مؤسسة اليمامة الصحفية ، 1994

5 – المسدي ، عبد السلام : الأدب وخطاب النقد ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بنغازي ، 2004

6 – عثمان ، أحمد : الأدب واللغة والفضاء ، كتاب الرياض 23 ، الرياض ، 1995

7 – مصلوح ، سعد : في النص الأدبي ، دراسة أسلوبية إحصائية ، منشورات النادي الأدبي الثقافي بجدة ،جدة ، 1991

8 – مرتاض ، عبد المالك : النص الأدبي ، من أين وإلى أين ؟ ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983

9 – مرتاض ، عبد المالك : الكتابة من موقع العدم : مساءلات حول نظرية الكتابة ، كتاب الرياض 61- 62 ، الرياض ، 1999

10 – ياسين ، السيد : التحليل الاجتماعي للأدب ، دار التنوير ، بيروت ، 1982

11 – شحيد ، جمال : في البنيوية التكوينية ، دراسة في منهج لوسيان غولدمان ، دار ابن رشد ، بيروت ، 1982

12 – خشفة ، محمد نديم : تأصيل النص ، المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب، 1997

13 – صبحي ، محي الدين : الكون الشعري عند نزار قباني ، دار الطليعة ، بيروت ، 1978

14 – صبحي ، محي الدين : شعر الحقيقة : دراسة في نتاج معين بسيسو ، بيروت ، 1983

15 – صبحي ، محي الدين : الرؤيا في شعر عبد الوهاب البياتي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ،1985

16 – صبحي ، محي الدين : قصائد رؤوية ،دمشق ، 1978

17 – صبحي ، محي الدين : الأدب والموقف القومي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1976
18– صبحي ، محي الدين : دراسات ضد الواقعية في الأدب العربي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، 1980
19– صبحي ، محي الدين : البطل في مأزق : دراسة في التخيل العربي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1979
20– صبحي ، محي الدين : أبطال في الصيرورة ، دراسات في الرواية العربية والمعربة ، دار الطليعة ، بيروت، 1980
21– بكار ، توفيق : قصصيات عربية ، الجزء الأول ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، 2001
22– أبو مدين ، عبد الفتاح : وعلامات ، الرواد للدعاية والإعلان ، جدة 2004
23– فانوس ، وجيه : محاولات في الشعري والجمالي ، اتحاد الكتاب اللبنانيين ، بيروت ، 1995
24– مخاطبات من الضفة الأخرى للنقد الأدبي ، اتحاد الكتاب اللبنانيين ، بيروت ، 2002